استدعاء شخصيتي المقاومين "علي بن سعدي" و"الأمير عبد القادر" في رواية " الطوفان " لعبد الملك مرتاض

Summoning the characters of the resistance fighters, Ali bin Saadi and Prince Abed el Qadir, in the novel "The Flood" by Abed el Malek MERTAD

الدكتورة: فاطمة الزهرة ناضر[1]

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، nadharfatima@gmail.com

الملخص:

يعدّ عبد الملك مرتاض من بين الروائيين العرب الذين اهتموا بالتراث، ووظفوه في أعمالهم الأدبيّة واستلهموا منه معظم شخصياتهم، وهذا نظرًا لتنوع مصادره، وغناه بالرموز والدلالات الإيحائيّة والمضامين. وقد لجأ عبد الملك مرتاض في روايته "الطوفان"إلى استدعاء مجموعة من الشخصيات التاريخيّة المختلفة لخدمة رؤاه المعاصرة، ووظفها بطريقة فنيّة فريدة، وحملها مجموعة من أبعاد تجربته المعاصرة، وجعلها وسيلة تعبير وإيحاء، بغية إثارة وجدان المتلقي ولفت انتباهه إلى أهم قضايا عصره. ومن أبرز الشخصيات المستدعاة شخصيتي المقاومين"علي بن سعدي" و"الأمير عبد القادر" اللتين وظفتا كرمز للبطولة والوطنيّة، لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة استنطاق بُنيتهما الدلاليّة والرمزيّة، وبيان سماتهما الإيجابية التي تتوافق مع مسارهما النضاليّ المليء بالبطولات والتضحيات.

وهذا نظرًا لاهتمام مرتاض بجانبهما التاريخي المشرق، وتعاليه بشخصهما عبر بنية السرد بغية إبراز مكانتهما التاريخيّة، وإماطة اللثام عن تاريخهما النضاليّ الحافل بالانتصارات، وتسليط الضوء على حياتهما من الناحيّة العلميّة والنضاليّة و الأسريّة.

الكلمات المفتاحية: عبد الملك مرتاض؛ علي بن سعدي؛ الشخصية؛ الأمير عبد القادر؛ الرواية؛ الطوفان.

Abstract:

Abed el Malek MERTAD was interested in heritage and was inspired by his personalities. In his novel "The Flood", he employed a group of historical figures, including the character "Ali bin Saadi". Prince Abed el Qader is a symbol of heroism, patriotism and courage. He used each character in a unique artistic way

1 المؤلف المرسل

to arouse the recipient and draw his attention to the most important issues of his time.
Therefore, we will try, through this study, to study the structure of each semantic personality, and to show its positive features that are consistent with the path of its struggle rich in sacrifices and heroism for the homeland.
Key words: Abed el Malek MERTAD; Ali bin Saadi; Personal; Prince Abed el Qader; the novel; The flood.

مقدمة:

تعدّ الشخصية من أهم التقنيات التي تشكل بنية الرواية، والعنصر الأكثر توظيفًا فيها، نظرا لغموضها وتميزها عن غيرها من البنى السرديّة، إنّها أداة فنيّة يبتدعها الكاتب، ويرسم ملامحها ومعالمها بطريقة مميزة، ويجعلها كائنًا ينبضّ بالحياة ويقدمها للقارئ على أنّها كائن ورقيّ فريد، تفرض سيطرتها داخل بنية الخطاب السردّي، وتحاكي الواقع بكلّ سلبيّاته وإيجابياته.

لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة استنطاق الُبنى الدلاليّة والرمزية المضفاة على شخصيتيّ كل من "علي بن سعدي" و" الأمير عبد القادر" والتعرف على طريقة هندستهما، وذلك بطرح الإشكاليات التاليّة:

– لم استدعى عبد الملك مرتاض شخصية كلّ من"علي بن سعدي" و" الأمير عبد القادر" في رواية "الطوفان"؟

– وكيف تمّ توظيفهما داخل بنية خطاب الرواية ؟

– وما هي السمات الدلاليّة والرمزيّة التي أضفيت عليهما؟

فضلاً عن الطبيعة المعرفيَّة لخطاب هذه الإشكاليَّة، آثرنا أن نعتمد في هذا البحث مقاربةً دلاليّةً تسترفد بفواعل السيميائيَّة السرديَّة طورًا، وبالإجراء النقديِّ الجماليِّ؛ النسقيِّ والسياقيِّ، أطوارًا أخرى، بغية الكشف عن الآليّة التي تشتغل وفقها شخصيتي المقاومين "علي بن سعدي" و"الأمير عبد القادر" داخل بنيّة الرواية، وذلك عن طريق استنطاق بناها الدلاليّة والرمزية، واستكناه عناصرها الفنيّة من الناحية الجماليَّة، والأسلوبيَّة.

4-1-مفهوم الشخصيّة (personnage):(المستويات: البشريُّ، والورقيُّ، واللغويُّ)

اهتمت المدارس الأدبيّة والاتجاهات النقديّة بدراسة الشخصية الروائيّة وتحليلها، وانقسمت إلى موقفين:

1-1 -الاتجاه التقليدي:

أضفى على الشخصية بعدًا واقعيًّا، وتعامل معها على أنّها إنسان له ذاته وتطلعاته باعتبارها «كائن بشريّ من لحم ودم يعيش في مكان وزمان معينين »[1] تطابق الأشخاص الأحياء كذات فرديّة كاملة التكوين، لها جوهرها السيكولوجيّ وحياتها التي تعيشها، بحكم تميزها وقدرتها على تقمص الأدوار المختلفة التي يلبسها الروائيّ لها، وهذا نظرًا للامتيازات الفنيّة التي تتمتع بها داخل بنية النص السرديّ.

1-2-الاتجاه البنيوي:

ببروز المنهج البنيويّ تغيرت نظرة النقاد إلى الشخصية فمنهم من اعتبرها علامة لسانيّة، ورتبة نحويّة لا تكتسب دلالتها وصورتها الكليّة إلاّ عند بلوغ النص نهايته، واستفاء وظيفتها الأدبيّة، وذلك عن طريق إفراغ الشخصية من كلّ محتوى دلاليّ، والوقوف عند وظيفتها النحويّة، بجعلها عبارة عن مورفيم فارغ يحتاج إلى الدلالة ليمتلئ، وهذه الدلالة لا تحصل دفعة واحدة، وإنّما تتواتر النعوت والأوصاف والعلامات وتتراكم لتشييدها وإنتاجها، إنّها «هيكل أجوف ووعاء مفرغ يكتسب مدلوله من البناء القصصيّ فهو الذي يمدّه بهويته»[2] ، ويعطيه مدلوله الذي يكتسب عن طريق الدال والمدلول، باعتبارها عنصرًا من مكونات السرد مثلها مثل بنية الزمن والمكان و المكونات السرديّة الأخرى.

فيما ذهب اتجاه آخر إلى اعتبار الشخصية عنصرًا لسانيًّا، وعلامة لغويّة، وكائنًا ورقيًّا لا وجود له خارج اللغة، ، يقدمها النص بصورة فنيّة متميزة، ويعمل على تشييدها، وإظهارها بواسطة مجموعة من العلامات والسمات، باعتباره كائنًا نصيًّا يتجسد تشكيليًّا وفنيًّا على الورق، كما أنّها أصبحت «في العمل السرديّ تنحو منحًا لغويًّا، ذلك بأنّ النظرة الجديدة إلى الشخصية، أمست تنهض على التسوية المطلقة بينها وبين اللغة والمكونات السرديّة الأخراة، ومن أجل ذلك، ربما عدت الشخصية مجرد كائن من ورق: وأنّها أولاً وقبل كلّ شيء مكون لسانياتيّ، بحيث لا ينبغي أنْ يوجد شيء خارج ألفاظ اللغة ».[3]

لذا يجب عدم الاهتمام بها، والنظر إليها على أنّها عنصر من مكونات السرد، لأنّه لا وجود لها خارج اللغة، فهي كائن ورقيّ خالٍ من الصبغة الحسيَّة والوجود الواقعيّ وليس له هوية الكائن البشريّ وذاته المنفردة، إنّما هو من إفراز خيال المبدع.

4-2-4-3- الشيخ علي بن سعدي:

تعدّ شخصية "علي ابن سعدي" من الشخصيات التاريخيّة الجريئة المغمورة التي تركت بصمتها في التاريخ الجزائريّ، فهو من أوائل المقاومين الذين ثاروا ضدّ الاحتلال الفرنسيّ بعد احتلال الجزائر وأعلنوا الحرب عليه.

استحضره عبد الملك مرتاض في ثلاثيّته كرمز للقوة والشجاعة، وذلك باستدعاء ملمح حادث معركته ضدّ الاستدمار الفرنسيّ التي كللت بالانتصار، وشحنها بالدلالات الإيجابيّة، واشتغل على إبراز بطولتها وشجاعتها، وتاريخها النضاليّ، نظرًا لتجاهل التاريخ لها«كيف لم يكد التاريخ يحفل به حفولًا؟ وكيف غطى عليه مقاومون آخرون فلم يكد هذا التاريخ يلتفت إليه فأهمله إهمالًا؟ مع أنّه فيما تذكرين لنا كان أول مقاوم ظهر أمره في جبال القبائل الشّماء تجرّأ على الكائن الغريب العنيد فأظهر له أنّ أهل المحروسة المحميّة البيضاء لا يرضون بالضّيم، ولا يقبلون الذلّ والهوان (...) ولم لم يشتهر،كما اشتهر المقاومون الآخرون الأبطال، فأمسى ذكرهم على كلّ لسان جاريًا؟ (...)كثيرًا ما تكون الشّهرة بلهاء!فلا أحد بقادر على إشهار أحد إذا لم تتضافر عوامل تجعله معروفاً.وربما كان الحاج ابن سعدي أحد هؤلاء الذين أخمد التاريخ ذكرهم فأهملهم إهمالًا»[4].

ورأى أنّ سبب إهمال التاريخ في ذكره يعود إلى عدم اهتمام التاريخ المكتوب والشفويّ به لانعدام وجود العوامل المساعدة على تداول أخباره بين العامة والخاصة، نظرًا لانغماره وعدم شهرته في أوساطهم ومادام الأمر كذلك فقد وجد الروائيّ مرتاض فيه ضالته، وأضفى على شخصيته سمة الشجاعة والبطولة والصلاح، نظرًا لجمعه الحسنيين: شرف العلم ورفعته، وقوة المحارب وحنكة القيادة «أما أن يجمع هذا المقاوم العظيم شرف العلم، فليس ذلك مستنكرًا ولا مستبعدًا.أم ترون أنّ المحارب الشجاع لا يكون إلاّ

جاهلًّا؟! كلّا !فالشجعان العظماء لم يكونوا في التاريخ إلاّ علماء... فهلاّ قرأتم تاريخ آبائكم الأكرمين، بتفاصيله وحذافيره، وما من فعلوا من أفعال بيضاء، وما تعرضوا له من فظاعة الاعتداء»[5].

ولا شك أنّ عبد الملك مرتاض يضعنا أمام حقيقة الصورة المثاليّة للقائد الفذّ، والحاكم القوي الذي يجب أن يكون عالما فطنًا خبيرًا بأمور الدين والدنيا، ومحاربًا قويًا ذا خبرة عسكريّة تخوله إلى قيادة البلاد، وحمايتها من المخاطر المحدقة بها من الداخل والخارج، إنّه يشير ضمنيًّا في المستوى الدلالّي إلى القيادة الحيويّة التي عن طريق ممارساتها يخلق النصر، وتتحرر الشعوب فيه من الاحتلال،كما نجده يشير إلى نقطة أخرى، ألاّ وهي غنى التاريخ الجزائريّ والإسلامّي بالقادة العظماء، الذين ضمنوا لأوطانهم الحرية، والسلام، والأمن، والنصر، وأكبر مثال على ذلك "الشيخ علي ابن سعدي،« لم يكن ذلك الرجل الشجاع الوطنيّ العالم، إلاّ الحاج علي ابن السعدي كان شيخًا مغوارًا، وكان ينضح قلبه بالشهامة الأمازيغيّة، العربيّة فكون جيشًا من المقاومة من جبال القبائل الكبرى، ثمّ هاجم به الكائن الغريب العنيد الذي كان قابعًا في أمّ المدائن الكبرى(...)فنكيّ فيه نكيًا شديدًا، وبشيء من التخطيط والإصرار،كان أقرب ما يكون إلى طرده من أمّ المدائن الكبرى طردًا نهائيًّا ومبكرًا، لكن هجومه فيها يبدولم يكن القصد منه تحرير أمّ المدائن الكبرى تحريرًا كاملاً مبكرًا، ولكن كان لمجرد إثبات الذات(...) والانتقام للضحايا الأبرياء الذين كان الكائن الغريب العنيد أبادهم، على بكرة أبيهم، من قبيلة العوفيّة الشهيدة[6]».

ومن الجدير بالذكر أنّ شخصية علي ابن السعدي شخصية فريدة، ارتبط اسمها في التاريخ بالانتصار في معركة مدينة الجزائر«وتقدم السعدي نحو مدينة الجزائر، وراح يقتل الكتائب الفرنسيّة المتواجدة حولها مع الكولون، وخرج الجنيرال بيرتوزان من المدينة، والتحم مع الثوار فانهزم الفرنسيون وهربوا نحو مدينة الجزائر، والمجاهدون وراءهم يقتلون ويأسرون، ويغنمون، ودخلوها وأغلقوا أسوارها ووصل سيدي السعدي حتى باب عزون، ووقف أمامه متحديا وهو مغلق، وعاد المجاهدين إلى مواقعهم غانمين منتصرين»[7]، وهذا ما أشار إليه عبد الملك مرتاض في ثلاثيته، حيث تعرض إلى هذه المعركة بتفاصيلها، وأبرز مدى قوته وشجاعته، حيث استطاع بفضل حنكته وحكمته التفوق على الجنيرال تيريزين، وإلحاق خسائر فادحة إلى جيشه، وقد كان بمقدوره استرداد مدينة الجزائر وطرد الاحتلال الفرنسيّ منها.

وكعادته اقتحم مرتاض هذه الحقبة الزمنيّة الصعبة، والحرجة على نفوس الجزائريين وحاول إسقاطها على حاضرنا، ومراجعة التاريخ بتماهيه مع الواقع المرير، والتلميح إلى إمكانيّة تغييره وتحقيق النصر، وذلك عن طريق تولي الإمارة والقيادة قائد مخلص حازم وهمام، يتصفّ بالطموح والقوة، لا يكتفي الإنجازات البسيطة، وإنّما يسعى إلى تخليص وطنه من براثين الجهل والاستدمار ونشر العلم والعدل والأمن بين أفراد رعيته.

ولقد بين هذا عن طريق شخصية الحاج سعدي التي جعلها شخصية نموذجيّة للسلطة والقيادة ورمز بها إلى الكيان العربيّ الإسلاميّ ذا الهمة العالية الواعي بما يحدث من حوله، الساعي إلى استرجاع أرضه، وإثبات أحقيته في امتلاك وطنه، وحمايته من كلّ المخاطر المهددة له سواء كانت أيديولوجيّة، أو ثقافيّة، أو عسكريّة، أو عقائديّة...

وفي ضوء هذه الرؤية عرج عبد الملك مرتاض على مرحلة من مراحل النضال ضدّ الاحتلال وأبرز شخصية الشيخ الحاج السعدي في صورة البطل المغوار المقدام، والعالم الورع، والحذق الذي «يغضب للحقّ فلا يخاف من ذلك ملاماً، كما كان يغضب على الباطل ولو كلف نفسه تلفًا»[8]،كما جعله أول مقاوم يثور ضدّ الاحتلال، ويتمرد عليه، حيث انطلق في الهجوم عليه ومواجهته بغية تحرير أمته من الاستدمار، وذلك عن طريق إعلان الجهاد، وبثّ الروح الوطنيّة في صفوف المقاومين، والتقدم بهم إلى ساحة المعركة، ثمّ التنكيل بكتائب العدو، وإحداث خسائر فادحة داخل صفوفه، وتحقيق النصر، رغم كبر سنه لينتهي به المطاف بانضمامه إلى صفوف الأمير والسير تحت رأيته.

ولقد استعاد تلك اللحظات المشرقة لبيان مدى أهميّة العلم والخبرة العسكريّة في تكوين الشخصية القياديّة المثلى، المنفتحة على العالم، وبلورة انتمائها الوطنيّ، لافتقار الحاضر إلى الحاكم القويّ، والقائد المحنك من جهة «والكشف عن القطيعة بين جيل الأحفاد وجيل الأجداد، وإظهار تقاعس الأحفاد عن حمل رسالة الأجداد من جهة أخرى»[9].

بناءً على ما سبق نلحظ أنّ عبد الملك مرتاض وفق توفيقًا كبيرًا في توظيف شخصية الحاج السعدي ونصره في التعبير عن أبعاد تجربته، وتصوير مستوى الإنسان العربي الثائر ذا الرؤيّة التحرريّة والروح

القوميّة المتطلعة إلى تخليص البشريّة من قوى الشرّ الاستدماريّة، في إطار تمجيد الماضي «وحاجة الواقع إلى شخصيات ثوريّة تقف بوجه الظالم والظالمين»[10] والشيء اللافت للانتباه وقوع الروائيّ في ملابسة تاريخيّة مرتبطة بزمان وفاة السعدي سنة 1833م،فيما كتب التاريخ تثبت أنّه توفيّ سنة1843م.

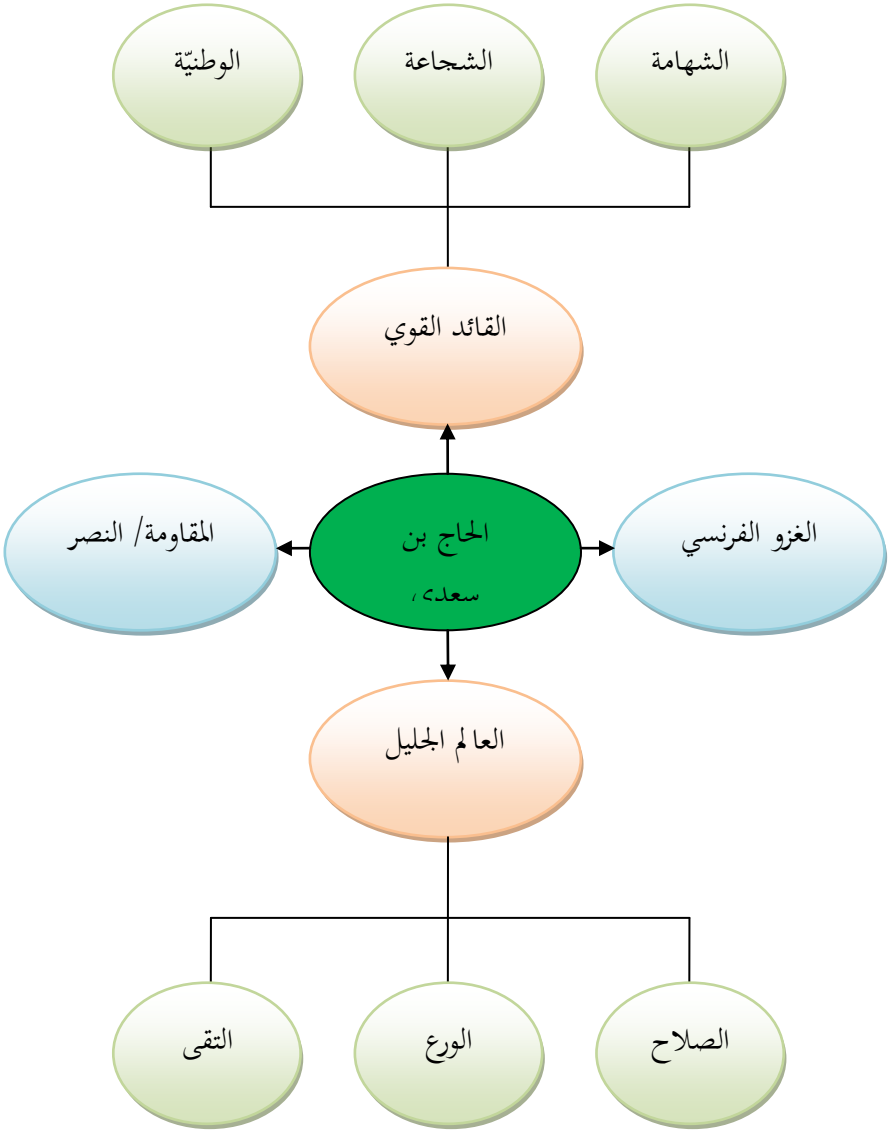

الدلالة الرمزيّة لشخصيّة الحاج علي بن سعدي

-2-4-5- الأمير عبد القادر:

يعدّ "الأمير عبد القادر"شخصية تاريخيّة لها مكانة خاصة عند الجزائريين، نظرًا للبطولات والتضحيات التي قدمها في سبيل تحرير وطنه من الاحتلال، وعظيمًا من عظماء الإنسانيّة سجل حضوره عبر صفحات التاريخ وفي الذاكرة الوطنيّة والعالميّة، ونال احترام العالمين: العربيّ والغربيّ باعتباره صانع الدولة الجزائريّة الحديثة، وقائدًا عظيمًا كان له الفضل بزعزعة الكيان الفرنسيّ، وصدّ الحرب الطائفيّة بالشام عام 1860م، وإنقاذ ألاف المسحيين من القتل.

وقد أولى الروائيون الجزائريون في بعض كتاباتهم اهتماما كبيرًا بشخصية الأمير* وجعلوه بطلاً لرواياتهم، أمثال الروائيّ الجزائري "واسني الأعرج" في روايته "كتاب الأمير"، وعبد الملك مرتاض في "ثلاثيّته" حيث جعله رمزًا للمقاومة والشجاعة، والبطولة، والنصر، والوطن، وذلك باستدعاء أربعة أحداث تاريخيّة من مسيرته البطوليّة، وأضفى عليها بعدًا ايدولوجيّا:

1- مبايعة الأمير عبد القادر.

2- سقوط الأمير واستسلامه للعدو الفرنسيّ.

3- نفيّ الأمير وسجنه.

4- إنقاذ آلاف المسيحيين من القتل والقضاء على الفتنة الطائفيّة بدمشق.

ويمكن أن نفسر اهتمام عبد الملك مرتاض بهذه الشخصيّة التاريخيّة التي اختارت النضال والجهاد لمواجهة العدو الفرنسيّ،رغبة في إسقاط تاريخ نضاله على الحاضر الذي هو بحاجة إلى شخصيات قياديّة ثوريّة قويّة، لإيقاف التوسع الاستدماري الغربيّ الذي تغلغل في قلب العالم الإسلاميّ.

لذا نجده استحضر هذه الشخصية وعرج على مرحلة قيام الدولة الحديثة الجزائريّة، التي عمل على بنائها وتأسيس دعائمها بعد مبايعته أميرًا للبلاد« ها قد أصبح عبد القادر الفتى أميرًا للمؤمنين قائدًا للدولة الوطنيّة الحديثة، فضرب العملة باسمه، وأسس مصنعًا للأسلحة، ونظّم الإدارة تنظيمًا عصريّا دقيقًا

ممّا جعل مؤرخيّ الكائن الغريب العنيد يقررون بأنّ الأمير كان تحت سلطانه من الأرضين أكثر من ثلثيّ المساحة الوطنيّة »[12].

مبينًا للقارئ مدى وطنيّة هذه الشخصيّة وقوتها، إذ استطاعت بفضل حنكتها وحكمتها السياسيّة، وحسن تخطيطها، وفي غضون سنوات إرساء دعائم الدولة الجزائريّة، وإلحاق هزائم لا تحصى في صفوف الجيش الفرنسيّ، بداية بمعركة ذات الخناق الأولى والثانية، ومعركة برج رأس العين اللتين أثبت فيهما شجاعته وقوته ،وجدارته باستحقاق لقب الأمير، لتتوالى فيما بعد الانتصارات ويتجلى للمؤرخين مدى براعته في خوض المعارك، وحسن قيادته.

إنّه صورة حية للقائد المثاليّ ذا الروح الوطنيّة، ونموذج للحاكم القويّ، العادل الثائر ضد الاحتلال، ونظامه الاستدماريّ، المنصرف إلى خدمة وطنه و رعيته.

وللخروج من تاريخيّة الأحداث إلى فنيّة المتخيل السرديّ، عمل مرتاض على استحضار شخصية "أمّ البنين" زوج الأمير كرمز للوطن والأرض، وجعلها عنصرًا فعالًا في بنيّة السرد، باعتبارها صورة للزوجة المثاليّة المتمسكة بمبادئها الإسلاميّة، المعتزة بانتمائها ذات الأخلاق العاليّة.

فمن خلال استدعائها استطاع مرتاض كشف الجانب الآخر من حياة الأمير، وتسليط الضوء على الجانب الأسري، محاولاً بذلك إبراز الدور الفعال الذي قامت به أمّ البنين من أجل إعلاء راية الحق، والتمكين لزوجها من أداء واجبه الوطني في سبيل تأسيس دعائم الدولة، والخروج من دائرة الاستدمار، إذ استطاعت بفضل حكمتها وطيبتها كسب محبته، والمحافظة على متانة علاقتها به ومساندته في السراء والضراء.

ففي أيام القوة وقيام الدولة الجزائريّة، وانتصارات الأمير،كانت له نعم النصيرة والحليفة وفي أيام السقوط والاستسلام، كانت له السند والدعم، والصدر الحنون الذي احتضن جميع أفراحه وآلامه وأحزانه، فقد كان لها« الدّور الأكبر في حياة الأمير الخاصّة والعامّة، فكانت بمثابة "شخصيّة الظلّ" الأولى؛ فكانت رفيقته في السّرّاء، كما كانت مواسيته في الضّرّاء؟(...) كانت أمّ البنين هي كلّ شيء في حياة الأمير،طوال مأسره ولبث فيه سنينًا خمسًا، فكانت تنفِّس كثيرًا من همومه، وتهون عليه من العسير حتى يصير يسيرًا؛

فكانت تجعل له المدبر مقبلاً، والذاهب آتيًا، والمفقود موجودًا، لا تأتلي جهدًا في فعل كلّ ما عسى أن يخفف عنه الهمّ، ويجلو عن قلبه الغمّ والأسى. »[13]

فرغم كلّ المصاعب والظروف القاسية التي واجهتها مع زوجها، من سجن ونفي وغربة حالت بينهما وبين حريتهما، إلاّ أنّها استطاعت بفضل إخلاصها ومحبتها له، التغلب على جميع المحن والعقبات التي واجهتها في طريقها، مجسدة بذلك الإخلاص، والوفاء، والتضحيّة، والصمود، والوطنيّة في أرقى درجاتها.

بناء على ما سبق نلحظ أنّ عبد الملك مرتاض استطاع من خلال استدعاء هاتين الثنائيتين المتكاملتين إبراز الجانب الأسري في حياة الأمير، وتسليط الضوء على علاقته الزوجيّة المبنيّة على المحبة والمودة، باعتبار شخصيّة أمّ البنين صورة حية لزوجة المثاليّة، التي اكتسبت مثاليتها من عقيدتها الإسلاميّة ونظرة الأمير لها، إذ يتحدد وجودها بوجوده، وترتبط هويتها بكينونته، وتتعانق ثقافتها بفكره، وترتقي صورتها إلى مستوى الوطن، وتصبح رمزًا له وللأمة الإسلاميّة.

إضافة إلى ما سبق نجد أنّ عبد الملك مرتاض استحضر حادثة استسلام الأمير، وأضفى على النص بعدًا عجائبيًا بغية الخروج من تاريخيّة النص ورتابته، لذا نجده وظف عجائبيّة المكان "صخرة شاطئ عجرود" واستخدمها لدلالة على الاستسلام، والسقوط، والصبر، والتأمل، والحرص على حياة الآخرين« ولذلك اطلّب الأمير إلى أصحابه أن يذروه وحده لينقطع للتأمل والتفكر في قرية عجرود العجيب شاطئها.جلس على صخرة شاطئها التي تقع منها مكانًا شرقيّاً. »[14]

وقد استطاع مرتاض أن ينقل للقارئ حالة الأمير النفسيّة، ويصور له أصعب مرحلة مرّت بحياته جراء خذلان إخوانه المغاربة له و تعاونهم مع العدو الفرنسيّ، وخيانتهم له، وبذلك يجد نفسه أمام خيارين إمّا الاستسلام، وإمّا المقاومة والاستشهاد، وللخروج من دائرة الحزن و الوصول إلى حلّ وجد نفسه أمام منظر عجيب« لاحظ الأمير أنّه هو الآن في فصل الخريف، والخريف ليس الربيع، ولكنّه عنوان على الهرم والشيخوخة ورمز للانتهاء.كما لاحظ أنّه في مساء، وليس في أول النهار الأضحى(...) وما هذا الذي

هو فيه من القتامة والاكتئاب؟...بدأ يتأمل قرص الشمس وهو ينحدر متهاويًا، متسارعًا نحو الأفق الغربيّ المجهول، فأسقط ذلك على حاله التي آل إليها »[15] محاولا بذلك الوصول إلى حلّ يخدم قضيته الوطنيّة.

و لإبراز حالة اليأس التي كان عليها الأمير أيام استسلامه، استحضر مرتاض زمنين وأسقطهما على حالته.

1- **زمن الخريف**: وهو آخر الفصول، فيه تتساقط الأوراق، وتزرع البذور وتحرث الأرض من أجل الحصول على محصول جديد.

2- **زمن المغيب**: وهو الزمن الذي تغيب فيه الشمس، ويختفي فيه النهار، ليقدم الليل بظلامه وسكونه.

لدلالة على انتهاء زمن مقاومة الأمير وأفول بطولته، واقتراب سقوطه في قبضة الاحتلال الفرنسيّ واستسلامه له، وبذلك ينفتح النص على سقوط الوطن بعد إقامته، ووضع دعائمه والتأسيس له، وبداية مرحلة جديدة، فيها يتم انطلاق شرارة الثورات والمقاومات الشعبيّة.

وقد استطاع عبد الملك مرتاض أن يحول هذا المنظر الحسيّ المتأمل الذي رآه الأمير إلى طاقة فنيّة خلاقة، وذلك بتوظيف أمواج البحر كعنصر مواس للأمير« ثمّ فجأة ،كأنّ صوتًا هادرًا يأتيه من مصدر عميق بعيد معًا، وكأنّه يخاطبه خطابًا لا يكاد يتبيّنه، ولكنّه مع ذلك يسمع مأتاه، ويدرك معناه على نحو ما:" أيّه الأمير الحزين! إنّا نحن معشر الأمواج لا نسبح – بلسان حالنا- بحمد اللّه تعالى فقط ولكنّا أوتينا سرّ إدراك الحقيقة الكبرى، فترانا ندرك كلّ ما يحيط بنا، ونقرأ مكنونات من يزدارنا فيُلمّ بنا(...)أيّه الأمير الحزين!لا تبخع نفسك على ما مضى، فقد ذهب وانقضى!وهيهات أن يعود تارة أخرى!فلا تحزن، على ما آل إليك أمرك" [16]

والسبب وراء استخدام حوار أمواج البحر للأمير ومواساتها له، هو منح النص نوعًا من العجائبيّة ولبيان مدى صعوبة الموقف الذي كان عليه الأمير في تلك المرحلة، إذ لجأ عبد الملك مرتاض إلى تصوير حالته، وتكثيف الدلالات للإحالة على التغير، والتحول الذي سيطرأ على حياة الأمير، بانتهاء مرحلة

المقاومة الوطنيّة وتغلب الاحتلال الفرنسيّ عليه، واستسلامه له، وبداية مرحلة جديدة من حياته، ولكن في المقابل سيسطع نجمه على بوابة عظماء الإنسانيّة.

كما نجده يسقط هذه المرحلة على حاضرنا المرير، الذي فيه يتمّ خيانة حكام الدول العربيّة لبعضهم البعض، بامتناعهم عن مساعدة بني جلدتهم وخذلانهم لهم، وذلك بتسليم رقابهم إلى العدو ونصرته، بهدف خدمة مصالحهم الزائلة.

ولعلّ السبب الرئيسيّ خلف هذا التوظيف العجائبيّ هو تمهيد مرتاض لمرحلة الأسر التي من خلالها يبرز مدى وفاء و شهامة أمّ البنين لزوجها، و وفائها له، أما مرحلة النفي فإنّنا نجده يتعالى بشخص الأمير بجعله رمزًا للتمدن والتسامح الإنساني، وذلك بالعروج إلى أهم موقف بطولي قام به الأمير في حق المسيحيين، إذ استطاع إيقاف أكبر مجزرة طائفيّة بين المسلمين والنصارى والحد من خطرها، وإنقاذ آلاف المسيحيين من الذبح « لقد برهن الأمير بسلوكه الإنسانيّ العظيم في دمشق وسائر بلاد الشام في إنقاذ النصارى من الذّبح، على أنّ قتاله الكائن الغريب العنيد في المحروسة المحميّة البيضاء لم يكن بدوافع دينيّة خالصة، ولكنّه كان بدوافع وطنيّة محضة(...) لقد أظهر الأمير أنّه إنسان كبير راقٍ متسامحٌ حقًّا(...)إنّ الموقف الإنسانيّ العظيم الذي وقفه الأمير في بلاد الشام، في مذبحة النصارى، رقي به إلى أرفع مستويات الإنسانيّة وأكرمها وأشرفها مكانًا. »[17]

بناء على ما سبق يتبين أنّ عبد الملك مرتاض عمل على هيكلة شخصيّة الأمير عبد القادر وفق رؤية فنيّة متميزة، وحمله البعد الإنسانيّ والأيديولوجيّ، وأبرزه في صورة القائد المثاليّ ذا الخبرة العسكريّة الفريدة، والحنكة السياسيّة الفذة، وذلك بإضفاء مجموعة من الملامح الإيجابيّة عليه:كالبطولة، والقوة، والشجاعة، والتضحيّة، والذكاء، والتسامح، والشهامة، والمروءة، والصبر، وجعله عظيمًا من عظماء الإنسانيّة، وبطلاً من أبطال المقاومة الذين حملوا لواء الجهاد و« النضال في سبيل الحق والخير الإنسانيّ»[18] ورمزًا للوطن والشعب الجزائريّ،والإنسان العربيّ الثائر ذا النخوة العربيّة المتسامح مع الآخرين على اختلاف دياناتهم.

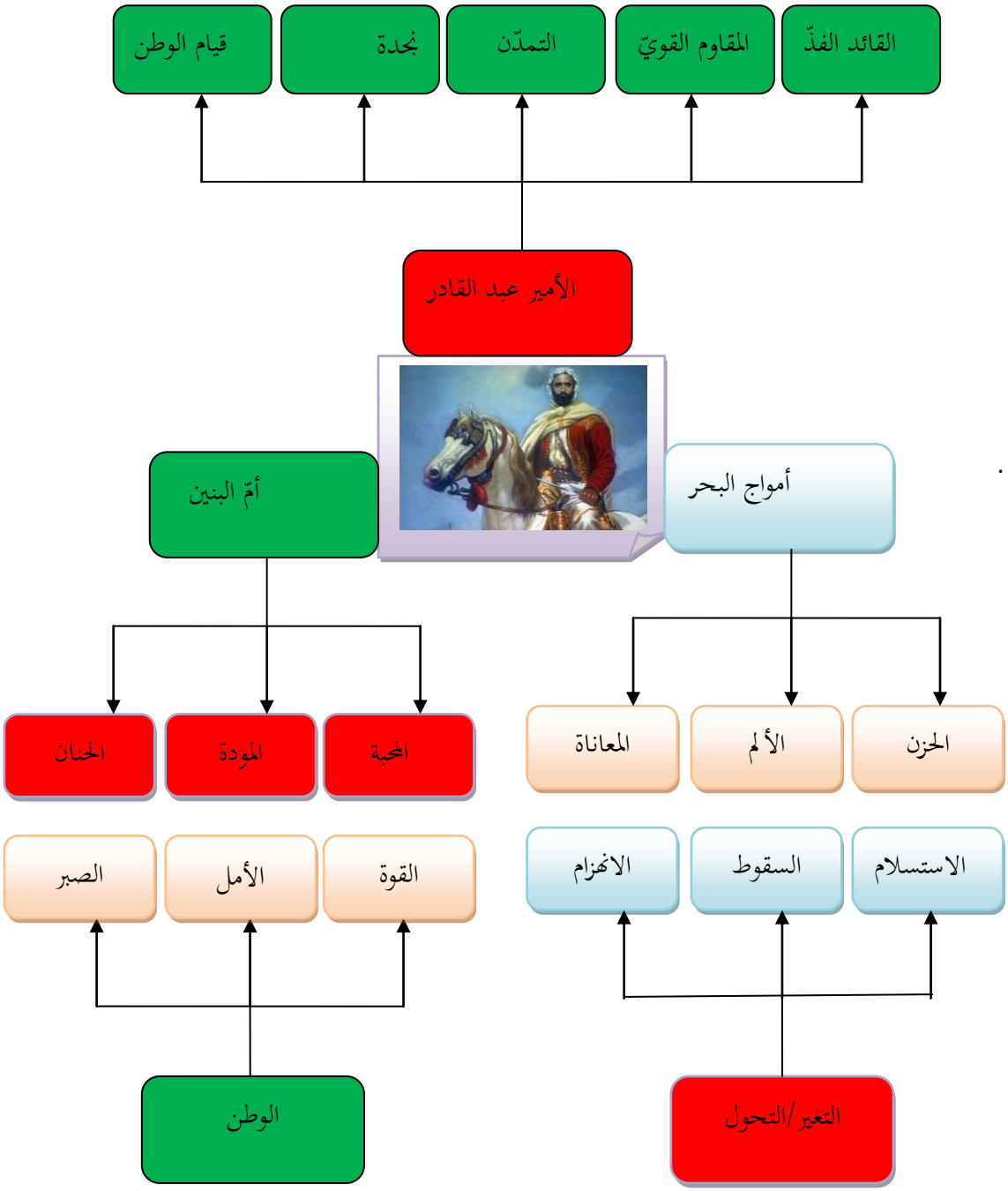

شخصيّة الأمير عبدالقادر: رمزية الحضور السرديّ

الخاتمة:

نجز البحث وتمّ، وكملت مباحثه بفضل الله تعالى، ولكن ما انتهت تطلعاته المنهجيّة، وما اكتملت أفاقه المعرفيّة، وقد أثار فينا هذا البحث مجموعة من القناعات، والحدوس النقديَّة الجديدة ولفتنا إلى عظمة كلّ من شخصيتي "الأمير عبد القادر"،" والشيخ علي بن سعدي" ومدى بطولتهما وشجاعتهما، وغنى شخصيتهما وتنوعها بالبنى الفنيّة المبتدعة.

واستخلصنا مدى تضارب الدراسات حول مفهوم "الشخصية" التي ذهب فيها الاتجاه التقليديّ إلى اعتبار الشخصية كائنًا إنسانيًّا من لحم ودم له هويته داخل بنية المتخيل السردي، فيما أبرز المنهج البنيويّ أنّ الشخصية علامة لسانيّة، وعلامة لغويّة، ليس لها وجود خارج اللغة، وذلك باعتبارها مجرد كائن ورقيّ داخل بنية المتخيل السرديّ.

وقد عمد عبد الملك مرتاض إلى استحضار كلّ من شخصيتي "الأمير عبد القادر"،" والشيخ علي بن سعدي " في رواية "الطوفان" بصورة مثاليّة ومتعالية، وأضفى عليهما أبعادًا رمزيّة مختلفة، وجعلهما مثالا حيًّا للإنسان الثائر، والمضحي الذي وهب ماله وروحه من أجل تحرير الوطن، ورمزًا للقوة والصمود والصبر والفداء والكفاح والنضال، باعتبارهما شخصيتين تاريخيتين لهما مكانة مهمة في سجل المقاومة الشعبيّة وهذا نظرًا لتميزهما عن باقي الشخصيات التاريخيّة بالبطولة والبسالة والتحدي.

كما نجد عبد الملك مرتاض أضفى على هاتين الشخصيتين هالة من التقدير والإعجاب، وبالتالي جاءت صورتهما غنية بالدلالات والإيحاءات تعكس مدى محبته لهما، وارتباطه الوثيق بهما، وذلك من خلال التعالي بشخصهما عبر بنية المتخيل السرديّ، وتوظيفهما بصورة إيجابيّة، وبيان دورهما الكبير في عملية تحرير وطنهما من براثين الاحتلال الفرنسيّ رغم بساطة أسلحتهما، وقلّة جيشهما مقارنة بالمحتلّ الفرنسيّ، حيث جعلهما رمزًا للقائد القوي الثائر ضدّ الظلم، الطامع في نصرة وطنه، وإعلاء رايته.

المصادر والمراجع:

1. بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر:حقائق ووثائق بين الحقيقة والتعريف، دار المعرفة، الجزائر،د:ط،2008.
2. رابح لونيسي، ح عبد القادر، رجال لهم تاريخ، ، نساء لهن تاريخ، دار المعرفة الجزائر، د:ط،

3. عبد العزيز شبيل الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط: 1، 1987.
4. نفلة حسن أحمد، التحليل السيميائّي للفن الروائيّ: دراسة تطبيقيّة لرواية الزيني بركات، دار الكتب والوثائق القومية، الاسكندرية، د ط، 2012..
5. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران.دط، دت.
6. عبد الملك مرتاض ، الأعمال السردية الكاملة ثلاثية الجزائر، منشورات مختبر السرد العربي، قسنطينة د:ط، 2012، مج 3.
7. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائريّ ضد الاحتلال الفرنسي: تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، دار العز والكرامة للكتاب، الجزائر، ط: 02، 1016/1437.
8. علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثيّة في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دط، 1417هـ/1997م.

[1] عبد العزيز شبيل الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط: 1، 1987، ص:111.

[2] نفلة حسن أحمد، التحليل السيميائّي للفن الروائيّ: دراسة تطبيقيّة لرواية الزيني بركات، ص: 111.

[3] عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص:120 .

[4] عبد الملك مرتاض، الأعمال السردية الكاملة ثلاثية الجزائر، منشورات مختبر السرد العربي، قسنطينة د:ط، 2012، مج 3. ،ص:343/342.

[5] م ن،ص:343.

[6] م ن،ص:342.

1. [7] علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائريّ ضد الاحتلال الفرنسي: تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، دار العز والكرامة للكتاب، الجزائر، ط: 02، 2016/1437 ،ص:316/315.

[8] عبد الملك مرتاض، م س،ص:344.

[9] محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية،ص:122.

[10] م س،ص:136.

*ينظر: رابح لونيسي، ح عبد القادر، رجال لهم تاريخ، ص:38/39..48، وبديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر:حقائق ووثائق بين الحقيقة والتعريف، دار المعرفةالجزائر،د:ط،2008،ص:29/143/155.

[12]عبد الملك مرتاض، م س،ص:366.

[13]م س، ص:421/422.

[14]م ن، ص:374.

[15]م ن، ص:378.

[16]م ن، ص:379/380.

[17]م ن، ص:425/426.

[18]علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثيّة في الشعر العربي المعاصر،، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دط، 1417هـ/1997م. ص:80.